الدرس (١٠٠) من شرح رياض الصالحين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فنواصل قراءتنا في هذا الكتاب كتاب رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، لأبي زكريا النووي رحمه الله تعالى.

يقول المصنف أبو زكريا يحيى بن شرف النووي رحمه الله تعالى:

٥٢- باب فضل الرجاء

عقد رَحِمَهُ اللَّهُ هذه التَّرجمة ليُبَيِّن مكانة الرَّجاء وفضله، وما أعدَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأهله من خيراتٍ عميمة وفضلٍ عظيم.

يقول المصنف رحمه الله تعالى:

(قال الله تعالى: إخبارًا عن العبدِ الصَّالِحِ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ [غافر:٤٤-٤٥]).

المراد بالعبد الصَّالح، أي: مؤمن آل فرعون الَّذِي آمن وكان يكتم إيمانه، ثمَّ صدع بالبيان والنُّصح والتَّحذير، مُفَوِّضًا أمره إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وملتجئًا إليه مع ما يُعلم من طغيان فرعون وبطشه، وكثرة عدده وعتاده، ففوَّض هذا العبد الصَّالح أمره إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو من دلائل وشواهد صدق التَّوكُّل وصحَّته، ومَن كان كذلك كفاه الله حاجته، ووقاه مكر الماكرين، وشرَّ الأشرار، ولا شكَّ أنَّ في هذا دلالةً على عظيم فضل الصِّلة بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وأنَّ المُتَوَكِّل على الله، المفوِّض أمره إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حريٌّ بكُلِّ خير وفضيلة في الدُّنيا والآخرة، من استجلابٍ للخيرات، ووقايةٍ من الشرور والآفات.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ أي يعلم أحوالهم وما يستحقون، ويعلم حالي وضعفي فيمنعني منكم ويكفيني شركم ففيه قوة رجائه بالله أن يكفيه وينجيه.

وقوله: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ أي: وقى الله ذلك المؤمن الصالح مكر فرعون وآله به وإرادتهم إهلاكه.

يقول المصنف رحمه الله تعالى:

٤٤٠- (وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي، وَاللهِ، للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالفَلَاةِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ**» متَّفقٌ عليه[1]، وهذا لفظ إحدى روايات مسلم. وتقدَّم شرحه في الباب قبله.

ورُوِيَ في الصَّحيحين: «**وأنا معه حين يذكرني**» بالنُّون، وفي هذه الرِّواية: «**حيث**» بالثَّاء، وكلاهما صحيح).

هذا الحديث مضى شرحه وبيان معناه، لكن ما يتعلَّق بهذه التَّرجمة هو الحثُّ على حسن الظَّنِّ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ورجاء رحمته جَلَّ وَعَلَا، وذلك بالمسارعة إلى التَّوبة إلى الله، والإنابة إليه، والتَّقرُّب إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بفعل الطَّاعات، وتجنُّب المُحَرَّمات والمَنهيَّات.

يقول المصنف رحمه الله تعالى:

٤٤١- (وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، يَقُولُ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[2]).

هذا الحديث فيه بيان فضل الرَّجاء وعظيم شأنه، وأنَّ العبد ينبغي أن يكون دائمًا حسن الظَّنِّ بالله عَزَّوَجَلَّ، ولكن لابد من عنايةٍ بفعل الأسباب الَّتي توجب ذلك، من صحَّة الاعتقاد،

---

(١) رواه البخاريُّ (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) رواه مسلم (٢٨٧٧).

وحسن العمل واتِّباع السُّنَّة، والبعد عن المُحَرَّمات، فمَن كان كذلك فإنَّه حريٌّ بالخير والفضيلة في الدُّنيا والآخرة.

وفي الحديث حثٌّ على الرَّجاء، وخاصَّةً عند الموت؛ لأنَّ الرَّجاء في هذه الحالة من أحسن حالات العبد، بحيث يكون مُوَدِّعًا هذه الحياة، مقبلًا على ربِّه ومولاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو حسن الظَّنِّ به جَلَّ وَعَلَا، والله عند ظنِّ عبده به.

يقول المصنف رحمه الله تعالى:

٤٤٢- (وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أُبَالِي. يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي. يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**» رَوَاهُ التِّرمذيُّ(٣)، وقال: «حديثٌ حسنٌ».

«**عَنَانُ السَّماءِ**» بفتح العين، قيل: هو مَا عَنَّ لَكَ مِنْهَا، أَيْ: ظَهَرَ إِذَا رَفَعْتَ رَأْسَكَ، وَقِيلَ: هُوَ السَّحَابُ. وَ«**قُرَابُ الْأَرْضِ**» بضمِّ القاف، وقيل: بكسرها، والضَّمُّ أصحُّ وأشهر، وَهُوَ: مَا يقارب مِلأَهَا، والله أعلم).

هذا الحديث من أعظم الأحاديث في باب فضل الرَّجاء، وعظيم مكانته، وأنَّ رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومغفرته وسعت كُلَّ شيءٍ، وأنَّه جلَّ في علاه لا يتعاظمه ذنبٌ أن يغفره مهما بلغ، لكن هذا ينبغي أن يستصحب فيه العبد هذه المعاني العظيمة الَّتِي اشتمل عليها هذا الحديث المبارك، ليكون من أهل هذا الموعود الكريم.

والحديث جمع أعظم أسباب غفران الذُّنوب، ونيل الرَّجاء والرَّحمة والغفران، **وهي ثلاثة أمور:**

---

(٣) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٤٠)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

١- **الأوَّل:** الدُّعاء مع الرَّجاء: أن يدعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مع رجاء رحمة الله وإجابته، وغفرانه، ومَن كان كذلك غفر الله ما كان منه من ذنوب مهما كثرت.

٢- **والثَّاني:** الاستغفار، والإكثار منه، والعبد لا بُدَّ أن يقع في شيءٍ من التَّقصير والذُّنوب، فينبغي أن يكثر من الاستغفار والإنابة إلى الله، والرُّجوع إليه، والتَّوبة من الذُّنوب.

٣- **والأمر الثَّالث:** توحيد الله، وإخلاص الدِّين له، والبعد عن الشِّرك كلِّه، ولهذا قال: «**ثُمَّ لَقَيْتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا**» أي: أي شيءٍ.

وهذا هو أساس بناء الدِّين الَّذِي لا غفران إلَّا بوجوده، ولا سبيل إلى نيل رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلَّا به؛ لأنَّ مَن لقي الله مشركًا فلا مطمع له في مغفرة الله ورحمته، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النِّساء:٤٨].

والحديث فيه: الحثُّ على الدُّعاء مع الرَّجاء، والحثُّ على الاستغفار، والحثُّ على العناية بالتَّوحيد؛ فإنَّها أعمالٌ عظيمة، وهي أعظم موجبات الرَّحمة، ونيل الغفران.

٥٣- باب الجمع بين الخوف والرجاء

عقد رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الترجمة بعد أن عقد بابا في الخوف ثم بابا في الرجاء ليؤكد على ضرورة الجمع بينهما دون أن يُغلب أحدُهما على الآخر، ويُشَبه العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ الخوف والرَّجاء بجناحي الطَّائر، وأنَّ الطَّائر لا يستتمُّ له الطَّيران إلَّا باستواء جناحيه، أمَّا إذا اختلَّ أحد الجناحين، فإنَّه لا يستقيم له الطيران، وهكذا الخوف والرَّجاء، هما للمؤمن كجناحي الطَّائر، بمعنى: أن يجمع بينهما، وأن يأتي بهما متوازنين.

وذلك أنَّ الخوف إذا غلب على الإنسان، وقلَّ الرَّجاء عنده؛ قنط من رحمة الله، وأيضًا مقابله الرَّجاء، إذا زاد عند العبد، وضعف عنده الخوف من الله؛ أمن من مكر الله، وكلٌّ من الأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله من كبائر الذُّنوب، ولا يُسْلَم منهما إلَّا بالاعتدال والتَّوازن، والجمع بين الخوف والرَّجاء.

يقول المصنف رحمه الله تعالى:

(اعْلَمْ أَنَّ المُخْتَارَ لِلْعَبْدِ فِي حَالِ صِحَّتِهِ أَنْ يَكُونَ خَائفًا رَاجِيًا، وَيَكُونَ خَوْفُهُ وَرَجَاؤُهُ سَواءً، وفِي حَالِ المَرَضِ يُمحَّضُ الرَّجاءُ، وقواعِدُ الشَّرْعِ مِنْ نصُوصِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ وغَيْرِ ذَلِكَ مُتظاهِرَةٌ عَلَى ذلك).

وينبغي أيضا أن يكون العبد في هذا طبيب نفسه فإذا رأى من نفسه أمنًا من مكر الله مع الإقامة على المعاصي فليغلب جانب الخوف، وإذا رأى أنه يخاف بلا موجب فليغلب جانب الرجاء حتى يعتدل خوفه ورجاؤه .

ثم ساق رحمه الله آيات جمع الله فيها بين ذكر ما يوجب الخوف وذكر ما يوجب الرجاء.

يقول المصنف رحمه الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف:١٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣-١٤]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة:٦-٩]، والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ. فَيَجْتَمِعُ الخَوفُ والرَّجاءُ في آيَتَيْنِ مُقْتَرِنَتَيْنِ أَو آيات أَو آية).

هذه الآيات كلُّها تجمع بين الخوف والرَّجاء، يُذكر التَّرغيب ويذكر في الوقت نفسه التَّرهيب، يُذكر الخوف ويذكر الرَّجاء، يذكر النَّعيم ويذكر العقاب، تذكر الرَّحمة وتذكر العقوبة، وهكذا؛ فجمع في القرآن بين الخوف والرَّجاء.

وهذا يستفاد منه: أنَّ مَن يقرأ القرآن ويتدبَّر آياته، ويعيش مع معانيه، فإنَّه يجتمع فيه الخوف والرَّجاء؛ لأنَّ القرآن فيه ترغيب وترهيب، والسُّنَّة كذلك فيها ترغيبٌ وترهيب، وقد أفرد بعض أهل العلم أحاديث التَّرغيب والتَّرهيب بالتصنيف، فتجد في الصَّلاة والزكاة والصيام وعموم أعمال البِرِّ ترهيبًا وترغيبًا، ذكراً للثَّواب وذكراً للعقاب.

فينبغي للعبد أن يحرص على الجمع بين هاتين الخصلتين العظيمتين، الخوف والرَّجاء، فإن الرجاء قائد والخوف سائق، الرجاء قائد يحرك العبد ويرغبه في الفضائل والطاعات، والخوف من ورائه زاجر، كلما أراد أن يحيد أو ينحرف عن الطريق زجره عن المعصية وساقه إلى طاعة الله.

يقول المصنف رحمه الله تعالى:

٤٤٣- (وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٤)).

هذا حديث عظيم في الجمع بين الرَّجاء والخوف وتحقيق الموازنة بينهما، وأنَّ المؤمن الَّذِي يتأمَّل في القرآن آيات الرَّحمة والإنعام والإكرام والثَّواب، وفي الوقت نفسه آيات التَّهديد والوعيد والعقوبة فيجمع بينها يخرج بالعقيدة القوام الوسط، الَّتِي هي جمعٌ بين الرَّجاء والخوف.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعدَّ من النَّعيم والثَّواب لأهل الإيمان ما لا يخطر ببال، فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأعدَّ أيضًا من العقوبة والنَّكال لأهل الكفران والضَّلال ما لا يخطر ببال من شدَّة العقوبة.

ويتولد من فهم ذلك أن الطَّمع الَّذِي هو الرَّجاء، والخوفَ من عقوبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمران ملازمان للمؤمن بتوازن من خلال نظره في آيات العقوبة وآيات الرَّحمة، فآيات العقوبة تخيف المؤمن، وآيات الرَّجاء تُقَوِّي رجاءه ، وإذا جَمع بينهما اتَّزن أمره واستقام.

يقول المصنف رحمه الله تعالى:

٤٤٤- (وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا وُضِعَتِ الجَنَازَةُ وَاحْتَمَلَهَا النَّاسُ أَوِ الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً، قَالَتْ: قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي، وَإِنْ**

---

(٤) رواه مسلم (٢٧٥٥).

كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ، قَالَتْ: يَا وَيْلَهَا! أَيْنَ تَذْهَبُونَ بِهَا؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانُ، وَلَوْ سَمِعَهُ صَعِقَ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(٥)).

في هذا الحديث الجمع بين الخوف والرَّجاء، وبيان أنَّ جنازة الرَّجل الصَّالح فيها الطَّمع العظيم في رحمة الله، وإذا احتُمِلت الجنازة وسار بها الرِّجال على أعناقهم، يقول صاحبها: (قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي)، لما قام في قلبه من الرَّجاء العظيم، والطَّمع الكبير فيما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من أجرٍ ومثوبة، (وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ، قَالَتْ: «يَا وَيْلَهَا! أَيْنَ تَذْهَبُونَ بها؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانُ، وَلَوْ سَمِعَهُ صَعِقَ»).

وهذا فيه: أنَّ العبد يحرص على الأعمال الصَّالحة طمعًا في مثوبتها وأجرها، ويحذر من الأعمال غير الصَّالحة، خوفًا من مغبَّتها وسوء عقوبتها، جامعًا بين الرَّجاء والخوف.

يقول المصنف رحمه الله تعالى:

٤٤٥- (وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(٦)).

«شراك النَّعل»: هو سير النَّعل، ويضرب به المثل في القرب.

فالجنَّة قريبة قربًا عظيمًا من أهلها، وهم أهل الإيمان والأعمال الصَّالحة، فليس بين الواحد منهم وبين الجنَّة إلَّا أن يموت، ليس بينه وبينها إلَّا أن تخرج روحه من جسده، فيفوز بهذا النَّعيم، «وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ» أي ليس بين صاحب النَّار الَّذِي أهلكته الآثام وأوبقته الذُّنوب وبينها إلَّا أن يموت، فالجنَّة قريبًا من صاحبها، والنَّار قريبة من صاحبها، ليس بين كلٍّ ودخولها إلَّا مفارقة الرُّوح الجسد.

وإذا تأمَّل المتأمِّل في هذا الحديث العظيم، أحدث في نفسه رجاءً وخوفًا، رجاءً بفعل الأعمال الصَّالحات، والطَّاعات الزَّاكيات، المُقَرِّبة إلى الله؛ لأنَّ الجنَّة قريبةٌ من أهل هذه

---

(٥) رواه البخاريُّ (١٣٨٠).

(٦) رواه البخاريُّ (٦٤٨٨).

الأعمال، وأيضًا تجنُّب الأعمال السَّيِّئة والمعاصي والذُّنوب؛ لأنَّ النَّار قريبة من أهل هذه الأعمال، فعليه أن يتَّقي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن يجمع بين الخوف والرَّجاء، وفعل الصَّالحات، وتجنُّب السَّيِّئات مُحَقِّقًا تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ليفوز بخيري الدُّنيا والآخرة.

قال الله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ} ، وقال تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}. فجُمع بين الرغَب والرهَب، والرجاء والخوف ولا يستتِم سير العبد إلى الله سبحانه إلا بهما.

نفعنا الله أجمعين بما علَّمنا، وزادنا علمـًا وتوفيقـًا، وأصلح لنا شأننا كله، وهدانا إليه صراطـًا مستقيمـًا. وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.